كيف يبتسم الناس

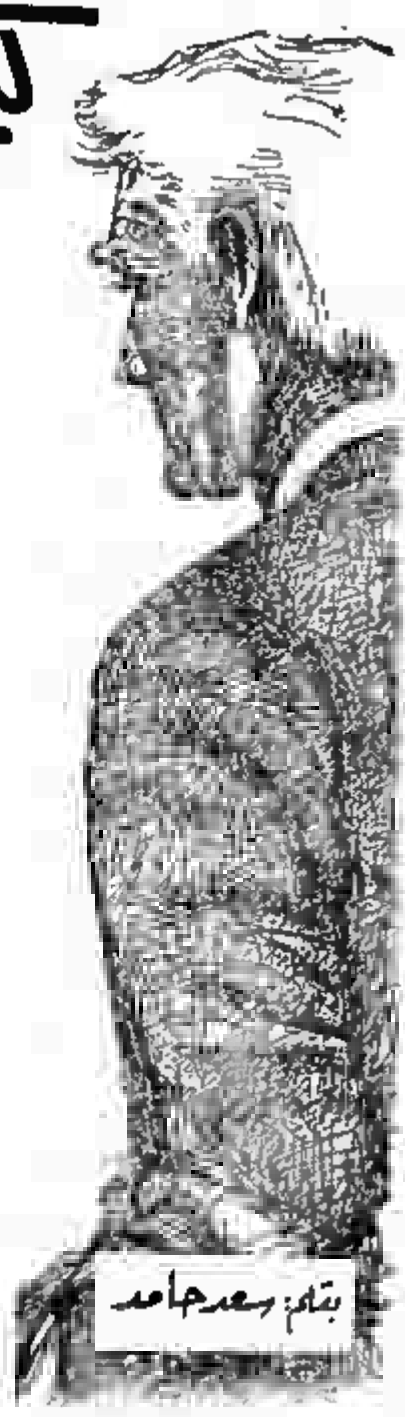

بقلم: سعد حامد

غربت الشمس وانا امشي في الطرقات على غير هدى ، واشعر بالوحدة .. انني وحيد وغريب عن هؤلاء الناس لاترتبطني بأحد منهم رابطة ما ، وان اصواتهم واحاديثهم وضحكاتهم تأتي الى حاسة كأنها تأتي من مكان بعيد .. وبدا لي ان هؤلاء الناس يتحايلون على النسيان ويبحثون عنه .. انهم يسهرون ويضحكون ويتحدثون محاولين نسيان ذلك الشبح الذي يترصدهم ، والذي يقف هناك على الجانب الآخر من الطريق .. شبح الموت .. الذي ينتظر عليهم هجمة ، ويطوي حياتهم في لحظة كلمح البصر .

لقد حدث كل شيء هناك .. وبلا مقدمات ...

كنت اعيش مع اخي الذي يصغرني بستة اعوام بعد وفاة والدتنا ، ولم يكن لنا اشقاء آخرين ، وكنا نسكن في شقة صغيرة في حي هادىء ، وكان اخي طالبا في الجامعة وكنت احتل مكان امه وأمه ، فقد تركه لي اب صغيرا واوصاني به ، وكنت اعمل موظفا في الحكومة ، وقد ساعدت نفسي على ان اكرس حياتي ومالي لبناء مستقبله . وكما رباني ابي ولم يبخل على بشيء من ماله او جهده قررت ان ارد الجميل الى اخي الصغير ، وهو أحوج [illegible]

[illegible] يعيش في هذا العهد ويحيى امين الحب ...

اشحت بوجهي عن كل الكمالات من اجله .. ولم افكر في الزواج من اجله ابدا .. كنت ادرك جيدا ان وجود امراة بيننا سيفسد الامر كله .. ستزيد — وهي زوجتي — ان تستأثر بي لنفسها ، ولن يرضيها قط ان يشاركها اي شخص آخر في حياتي حتى ولو كان اخي .. ستصر على ان تكون حياتي وملكي خالصا لها .. ولهذا ارجات فكرة الزواج حتى يتم اخي تعليمه ويتوظف .. وقد كانت التضحية قاسية خاصة وان القلب كان قد خفق خفقة الحب .

كانت « ثريا » فتاة من جيراننا من اسرة طيبة ، مات ابوها وتعيش مع اخوتها وامها ، وهي سيدة طيبة كانت تربط بينها وبين امي اواصر صداقة ومودة .. كانت ثريا جميلة ومثالا للخلق الكريم ، وكنت اراها في منزله او في شرفة بيتها احيانا ، وكنت التقي بها احيانا في الطريق فيركض قلبي في صدري ويحمر وجهها وتلقي عينانا في نظرة محيرة ، وكانت تطرق ، وكنت اواصل سيري مضطربا خافق القلب ..

كانت ثريا في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها ، وكنت اكبرها بعامين اذ كنت في الاربعين لكني كنت اشعر من التقدم بنوعا لحظة اللقاء العابر في الطريق ان هناك شيئا من الحنين والود يربط بين قلبينا .. كانت ثريا هي الامل الحلو الذي يطمح اليه قلبي ، والمصباح المتالق الذي سيضيء حياتي ، وكنت اعتقد ان سعادتي في الدنيا ستتحقق يوم يمرع اخي من [illegible] وتوظف ويتزوج من ثريا ..

كانت التضحية قاسية .. ضحيت بنفسي وبمالي وبقلبي من اجل عائلة الاخوة الثلاثة ، واحتملت التضحية من رضا وطيب خاطر لكني لا انكر انني كنت اتعذب في اعماقي ، وكنت احس لذعة الحرمان من ثريا تحرق صدري .

وفجاة حدث ما حدث ...

ذات يوم بينما كان اخي عائدا من كليته تحرك الترام قبل ان يركب فسقط تحت العجلات ، وحملوه الى المستشفى في حالة سيئة ، وعندما اطمأنوني انا ، وهرعت الى هناك وجدته قد فارق الحياة ...

كانت الصدمة قاتلة .. مميتة .. لم امرض ولم يلازم الفراش بل كان يفيض بالنشاط والامل والحياء .. اصبحت ذهول ، واستحالت الدنيا امام عيني الى ظلمة دامسة ، ولا ادري حتى هذه اللحظة كيف شيعت جثمانه الى مقره الاخير ، فقد كنت اسير وانحرك وانظر الى الناس كانني مستغرق في حلم رهيب ...

وعندما انمحض الناس من حولي القيت بجسدي على الفراش غير مصدق ما حدث ، وانا لا اكاد اقوى على التنفس ، والمرئيات تبدو امامي كلها اطياف بحمرها ضباب كثيف ، واضطربت افكاري ، وتلاحقت في ذهني صور سريعة غامضة لا معنى لها ولا رابط بينها .

ولا ادري كيف مرت بي الايام الاولى عقب الكارثة ، وقد لازمني بعض اقاربي ليجمعوا معي المصاب ، ولكن احاديثهم وكلماتهم كانت تطرق سمعي بلا فائدة

لا معنى لها لاتصل الى قلبى ولا تخفف من آلامى . كان معذبى اكبر ان ينفع منه عزاء ...

احسست بشىء فى صدرى قد مات .. جزء من نفسى او نفسى كلها .. لم يعد هناك انسان يستطيع ان يحمل الى العزاء او ان يمسح اجراحى بتأمل الحمل ، وكم تمنيت لو كنت انا الذى مت وعاش هو .. لماذا لم يأخذنى الموت ويتركه وهو الشاب الباسم الذى ينتظره مستقبل مشرق مريض ، ولكن الموت لا منطق له ، مقيد يخطف صبيا ضاحكا بريئا ، وينتزع الحياة من شاب قوى متمتع للحياة ، ويترك كهلا مريضا ورجلا محطما مائتما لاتنع منه لانسان ...

وشعرت بنفسى اصبت بشلل فى نفسى وحواسى ، فكنت اجلس فى مكانى بلا حراك احدق فى لاشىء ، ولا افكر فى شىء ، ولا احس برغبة فى شىء ، ولم اكن حتى ارهب من الحديث مع اى انسان ، اصبحت اعيش فى صمت مطلق ، ولم اكن امتع نفسى الا للضرورة القصوى ...

بدت لى الدنيا مشحونة بالياس والتعاسة ، وكنت اشعر برغبة تملكنى فى ان ابكى وان اطل ابكى ، وبحزن عميق اسود يتراكم فى اعماقى ، ولكن الدموع لم تستجب لى .. جفت فى عينى .. لقد بكيت يوم وفاة اخى كما لم ابك من قبل ، ولكن فى الايام التالية رحت امسح من الدموع عينا ... كنت اريد ان ابكى ابدا حتى تخف ذلك الاحزان الدفينة فى صدرى ، ولكن الدموع تحجرت فى عينى ...

وتلمست حولى جرحا .. منهارا ..

لم يعد هناك شىء يسهوينى او يحدث انتباهى او يحرك قلبى .. لم يعد لحياتى طعم ولا معنى ، وزهدت فى كل شىء .. حياتى وعملى .. حتى الطعام لم اعد اتناول منه الا ما يقيم الأود ، وانهارت صحتى ونحل جسدى ، وكنت امشى فى الطرقات مترنحا كالثمل . كنت اذهب الى عملى فانتهى فيه مساعات ثم اتركه وانا اشعر بالملل والسأم ، فالقى بجسدى على مقعد فى احد المقاهى واروح انظر امامى مذهولا داهلة لا ترى شيئا ...

ثم اعود الى البيت محطما من التعب مأدور فى المسكن كالمأخوذ انظر الى فراش اخى والى ثيابه المعلقة فى الصوان ماحثا بعينى عن ذلك الانسان الحبيب الذى كان ملء البصر والسمع .

ما معنى هذه الحياة .. ؟ ! لماذا جئنا ومن اين جئنا .. والى اين نذهب ..؟

ودرت فى دوامة مظلمة عميقة ، وحسبت ادور فيها بلا مخرج ، وكل صباح اظل اذهب الى قبر اخى واجلس امامه احدق فيه بعيون جامدة لاتطرف .. ما هو الموت .. ؟ وما معنى هذا كله .. ؟ ! ثم اقفل عائدا الى المدينة بطرقا أترنح ...

وصفت محياتى ذرعا ، وازدريتها ، وعرفت فى اعماق نفسى ، ولم اعد ابيا وليت وجهى ارى شيئا سوى شاهد القبر ، ومقتت كل شجاعة على مواجهة الحياة ..

واهملت نفسى وثيابى ، وكان اقاربى ومعارفى ينظرون الى فى عطف ، وحاول بعضهم ان يخرجنى من عزلتى المظلمة

[illegible] تتحسس ... النعس يمر الى من اشماق ، والنعس من رثاء . والنعس من سخرية ...

وكنت احيانا وانا ساهر في عدائي تعود لي خيالي ذكريات الماضي ، متذكر ايامنا الاولى عندما كنت اعيش في كنف ابي وامي واخي ، ويبدو لهم عيني لحظات السعادة والصفاء والدعة ... ثم اتذكر ايامي مع اخي ... عندما كنا نقضي اوقات مراحنا معا ، ونتنزه معا ، وتذهب الى السينما معا ، وتتجول في طرقات القاهرة المزدحمة معا ، ونحن نضحك حتى تدمع عيوننا من الضحك . ثم يتجلى الحاضر الى ظلامه مجددا ، وتتحدى الحقيقة المرة ... كل هذا قد ذهب .. ذهب الى غير عودة ، يعني كل شيء ، وبقيت وحدي ضائعا في هذه الدنيا الواسعة ...

وفي تلك اللحظات كان يخيم علي حنين مجيب الى حياتي الماضية ، وتراودني غريزة حب الحياة ، وتجتاحني رغبة في ان اهرب بنفسي من هذه الاحزان ، وابتسم للحياة مرة اخرى ، واحاول ان ابتسم لكن الابتسامة لا تطاوعني ، واجد وجهي جلدا كتمثال من الشمع ..

ان الابتسامة لم تعرف طريقها الى شفتي منذ رحل اخي عن هذه الدنيا .. مرت بي شهور طويلة لم ابتسم فيها مرة واحدة حتى ايقنت انني قد نسيت الابتسامة تماما ... !

وكنت انطلع الى الناس وهم يبتسمون ، واسأل نفسي في حيرة وعجب :

— كيف يبتسم هؤلاء الناس .. ؟

واي شيء يجعلهم يبتسمون ؟ بدا لي الحياة يجعل الابتسامة ترتسم على شفاههم ؟ الحياة كلها تعب وشقاء وعذاب وعراك وموت . الا يذكر هؤلاء الناس حياتهم المعلقة على خيط اوهن من خيوط العنكبوت . الا يذكرون الموت الذي يتربص بهم في كل لحظة ومع كل نفس يتردد في صدورهم ؟

وفي الدوامة المظلمة التي ادور فيها نسيت كل طيبات الحياة .

***

اصامت مصابيح الطرقات ؟ وهبط الظلام ؟ ومازلت اهيم في الطرقات على غير هدى افكر بلا انقطاع ...

وتناهى الى سمعي صوت الشيخ عبد الباسط وهو يتلو القرآن بصوته العذب الاخاذ من مذياع بأحد المتاجر ، فوقفت انصت اليه وقد انتبهت حواسي ومست الكلمات المعجزة شغاف قلبي .. كل نفس ذائقة الموت ؟ وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ؟ ...

وبلاحقت تنصلت قلبي ، والقرىء يردد الآية بقراءات مختلفة اكثر من مرة وشعرت بهزة في اعماقي كمن مسه تيار كهربي ، وظللت واقفا استمع الى القرآن العظيم في انعمال وخشوع ، ثم غادرت مكاني وهدأت بطيء الخطو وقد احسست بهدوء يشملني لكنني سألت نفسي في حيرة وحزن :

— كيف نسيت السماء وانا غريق في محنتي .. ؟

وراودتني من جديد تلك الرغبة في ان اهرب بنفسي من احزاني .. الرغبة في الحياة التي تحتمل في كل نفس .

رحت اتقل قدمي على ارض الطريق بلا وعي وانا غريق في خضم من الافكار

ومضاءة وضوء بصرى على الاشياء متألقة بشعاع من توافد نحو صدرها وتنعكس على ارض الطريق ، ورمقت بصرى الى المعنى المتألق الذى يبدد الظلمات من حوله ، فاذا به مسجد ...

وقفت فى مكانى مبهوتا انطلع اليه وقد اشتدت خفقات قلبى ثم تحركت بقدرتها نحوه ، موضع بصرى على المصلين يؤدون صلاة العشاء ...

وقفت كالخائف والمرتعش كالمقرور ، واحدق فى المسجد وكأنه بكل قد حرم على ، وظللت جامدا انطلع الى النور المنبعث من باب المسجد ومن نوافذه ، ونسيت نفسى لحظات ثم انتبهت ، فاذا بعض المصلين مغادرون المسجد وهم يمسحون بالدعاء ، ونظرت الى وجوههم واحتاجتنى الدهشة ..

رأيت وجوها هادئة مشرقة مطمئنة ، ولمحت بسمات تتلألأ على تلك الوجوه .. بسمات حلوة كلها الرضا والتفاؤل .. وهتفت فى اعماقى :

ـ كيف سبيت هذا .. ؟ شىء واحد هو الذى يجعل الناس يبتسمون .. الايمان بالله هو النور الذى يضىء جنبات الصدر ، ونزل السكينة فى القلب .. هو مفتاح السعادة الذى يحل الانسان من لجة الشقاء والعذاب الى شاطىء الطمأنينة والاستقرار .. ليس شىء غيره ...

وعندما غادر المصلون المسجد وهدأت نفسى انسال داخلا اليه . ورغم اننى احسست براحة تغمر صدرى وانا ادلف الى المسجد ، فقد اجتاحتنى رغبة شديدة فى ان اكى ، وان استغرق فى البكاء ...

ووقفت لأصلى العشاء .. وضاءة .. فاض من عينى نهر الدموع ، فتحطم سد الشقاء والعذاب ، وجرف امامه ركام التعاسة والاحزان الدفينة ... وعندما مرعت من صلاتى لمحت شيخ المسجد وهو ينظر الى نحوى فى تعاطف وحنان ثم رفع عينيه الى السماء وهمس بكلمات ثم انصرف لشأنه ..

وغادرت المسجد وانا اشعر بهدوء واطمئنان ، وقد امترت شفتاى عن بسمة ..

لقد عرفت اخيرا كيف يبتسم الناس .. الايمان .. والأمل .. الايمان بالله الذى يشع فى الصدر راحة وفى الاعماق طمأنينة .. والامل .. الامل فى رحمته تعالى وفى عونه ... لقد افتقدتنى السعادة سنوات ، واظلم اليأس الدنيا أمام عينى ... واحسست وانا اخرج من المسجد الى الطريق اننى ولدت من جديد ...

نعم انا الآن انسان آخر .. وعجبت لتحول فى الطرقات لكننى لم اكن اعنى على غير هدى بل كنت اعرف ماسوف افعل ـ وكانت طمأنينة الهية تغمر صدرى ، وهدوءا نفسيا يشمل عقلى ونفسى جميعا ...

كنت ارسم الخطوط الاولى لحياة جديدة ... لن البث ان اعتدها على النور ... اجل يجب ان ابدأ من الليلة .. سأبدأ من الليلة فى ترميم حياتى التى حطمها اليأس والحزن .. لن استسلم لليأس القاتل مرة أخرى .. نعم لن استسلم . وسيعينى الله على ذلك ، ولن يتخلى عنى ...

سأنتقل اولا من المسكن القديم الى شقة اخرى ... سأهرب من ثوب ذكرياتى

ولن اعيش بمفردى .. سأتزوج .. أجل سأتزوج ...

ثريا ... يالهى .. كيف نسيتها .. واضاء الاسم املى وتوهج كالمصباح المتألق فى ظلمة الليل .. تلك الفتاة الجميلة ، حارتنا بنت « الست ام خليل » الطيبة .. الفتاة التى طالما كان قلبى يركض فى صدرى كلما رايتها ، والتى كان وجهها يحمر كلما التقت عيناى فى نظرة معبرة ، والتى خفق القلب بحبها اول خفقة ، وكل رواجى منها اقصى امنية لى .. تلك الامنية التى اودعتها — من اجل اخى احمد — فى مكان سحيق من صدرى ...

اجل سأتزوج من ثريا ، وسابدا حياة جديدة ، وسيعلم الله الى جانبى ، ولن يتخلى عنى ، وكل جمعة سنزور بها قبر امى ، ماثرا هناك ما تيسر من القرآن وارحم عليه .. لن استسلم لليأس مرة اخرى .. ان الله الذى وهبنا الحياة لنعيشها ولنتمتع بها لايرضى قط أن اعيش عمرى كله فى ظلام اليأس والضياع ، ولن انقطع عن الصلاة ابدا .. لقد اصابت صدرى المظلم واخرجنى من ظلمة اليأس الى نور الحياة ...

كنت ارتجف من الانفعال ومن امانى شعرت من الاحاسيس تريد ان تفجر . لن انام الليل هذه الليلة .. هذه ليلة خالدة فى تاريخ حياتى .. يجب ان افعل شيئا .. اى شىء .. يحقق أمالى فى الحياة الجديدة التى صممت ان اعيشها ...

واتجهت صوب الشارع الذى اقطن فيه .. وفى هدوء دخلت بيت ثريا ..

اخيرا سأتزوج ، وسيتحقق الامل ، وسأنتقل من هنا الى حى آخر والى شقة جديدة واثاث جديد وحياة جديدة ، وساجعلك بعيدا عن التعاسة حيثما الى جنة الحب والزواج ..

وطرقت باب شقتها بأصابع خفاق القلب ، وانفتح الباب عن وجه « الست ام خليل » ومدت يدها تصافحنى وترحب بى ، ودخلت الى حجرة الصالون ..

جلست امامها مضطربا كالتلميذ البليد المحرج ، وكانت السيدة تتطلع الى فى شىء من الدهشة فلم اكن معتودا على زيارتهم ، وكنت اريد ان اصارحها على الفور برغبتى ، ولكن لسانى انعقد فى فمى ، والعرق ينصب على جبينى وانا احاول جاهدا ان اتمسك بكلمة ، والسيدة تقول لى بين الفينة والفينة مرحبة وكانها تشجعنى على ان ابدا الحديث :

— اهلا وسهلا ، مرحبا ، وارتنا النبى ..

وانا ارد عليها بصعوبة لاسمع ..

وبعد لأى قلت لها فى ارتباك وصوت خائف مرتعش :

— والله ياست ام خليل انا لى عندك رجاء ...

فقالت السيدة وهى لاتزال تتطلع الى فى فضول :

— انا تحت امرك ياولدى .. قل ماتريد .. ؟

فقلت ووجهى يزداد احمرارا :

— جئت اطلب الآنسة ثريا زوجة لى ..

ونظرت الى السيدة فى دهشة وعجب كمن تتطلع الى افعال بهدى ..

ثم اطلقت ضحكة ولم تملك نفسها ماستغرقت في الضحك ، ورافقتني ضحكاتها رسلكا وحرها ، وكاد قلبي يركض في صدري وانا في اشد العجب من ضحكها . ثم سالكت السيدة نفسها وقالت لي في صوت هادىء فيه رقة اشفاق :

— تريا بابني تزوجت بعد اكثر من عام .. وبالامس انجبت طفلا جميلا . اني عائدة توا من عندها .

بهت .. ونظرت اليها كالمشدوه .

واستطردت السيدة في رقة وحنان :

— كيف لم تعلم وانت تسكن في نفس شارعنا ..

وقلت في استحياء وانا اكاد ابكي من الجرح :

— مرت بي ظروف عصيبة انت تعرفينها . ان وفاة امي جعلتني لا احس بالدنيا من حولي . لم اكن طوال الشهور الماضية محسوسا في الاحياء ...

وسللت خارجا من البيت كسير القلب اتصبب عرقا ..

ولان ... ماذا افعل .. ؟ لقد مشيت في اول خطوة اخطوها .. لن القدر يعاندني ويقف لي بالمرصاد .. ماذا فعلت يا ربي حتى تحكم علي بكل هذه التعاسة ، وكل هذا العذاب .. ؟

لكني كنت احس في نفسي قوة من جديد لا ادري من اين جاءت .. قوة الابطال بالفة وقوة الامل فيه .. اجل .. رغم هذا الفشل لن استسلم .. لن استسلم لليأس والمرض والغريبة مرة اخرى .. لقد تزوجت تريا .. الفتاة التي كان القلب يحلم بها تزوجت وانجبت طفلا .. جاءت بطفل جديد الى الحياة .. الحياة التي لاتتوقف ابدا .. وانا ايضا .. لن اتوقف .. لقد فقدت تريا ولكن هناك غيرها .. هناك عشرات الفتيات غيرها ...

لقد انجبت تريا .. ان الحياة لاتتوقف ابدا .. لاتتوقف .. وانا لن اتوقف .. سابدأ من جديد .. نعم سابدأ من جديد ..